أسرى القدس:
فاطمة برناوي، رجائي الحداد، علاء البازيان

عيسى قراقع

كاتب فلسطيني ووزير سابق للأسرى

الأسيرة الأولى فاطمة برناوي

القدس أو الموت...

القدس أم القديسين والقديسات، من حاراتها العتيقة ومن فجرها انطلقت القديسة الفدائية فاطمة برناوي في عملياتها الفدائية عام 1968، رداً على هزيمة 1967، لتؤكد أن القدس لا تخضع ولا تستسلم للغزاة والمعتدين، اعتقلت فاطمة البرناوي وكانت الأسيرة الفلسطينية الأولى، حكمت بالسجن مؤبدين و10 سنوات وأُفرج عنها عام 1978.

خرجت فاطمة من حارة الأفارقة في القدس، امرأة مقدسية سمراء لم تحتمل أن تهتز بوابات وأسوار القدس ويقتحمها جنود الاحتلال، قالت: القدس عصية على الاحتلال، القدس قنبلة ومسدس وكوفية وأنبياء مسلحون، إذا سقطت القدس سقط كل مقدس في الكون، وكانت نبوءة، لتصير فاطمة برناوي هي كل امرأة وفتاة في القدس الآن، هي كل النساء المرابطات المدافعات عن عروبة وهوية القدس،

يتصدّين لقطعان المستوطنين وعصابات الاحتلال، يدافعن عن المسجد والكنيسة وروح المكان.

الأسيرة الأولى التي قاتل والدها في ثورة 1936، لا تغادر البسمة وجهها، القدس تبتسم من خلال هذه المرأة الشجاعة، شجاعة نساء القدس وفتياتها وأهلها، ها نحن نراهن يشتبكن بالأيدي مع المستوطنين الذين يقتحمون الأقصى وباحاته، رأيناهن في أول أيام عيد الأضحى، الصامدات المؤمنات الجريحات المتعبدات الشهيدات الأسيرات، فكانت القدس مدينة القيامة والثورات ومنها بشارة الخلاص.

فاطمة برناوي لا تؤجل الصلاة، لا تختبئ في ملجأ أو ترفع راية بيضاء، فاطمة تشعل القدس التي منها انطلقت كلمات الحياة، فالقدس هي انحناء السماء على الأرض، تقول فاطمة: هي مدينة الفداء، مدينة فيصل الحسيني وعبد القادر الحسيني وقاسم أبو عكر وعمر القاسم وجمعة إسماعيل وسامر العيساوي وهند الحسيني وأحمد مناصرة وعلاء البازيان وإسراء الجعابيص ونورهان عواد ومرح بكير وشروق دويات وسمير أبو نعمة وعلي جدة ومحمود جدة وخليل بيدس ووائل القاسم، مدينة الفدائيين والفدائيات والأسرى والشهداء والصامدين في جبل الزيتون والعيسوية وسلوان وصور باهر والمكبر والبلدة القديمة وشعفاط وكل حارة من حاراتها، في كل شارع من شوارعها.

الأسيرة الأولى فاطمة البرناوي زوجة الأسير المرحوم فوزي النمر ابن مدينة عكا، تجدد طاقتها وشبابها بعد هذه السنين الطوال، تتوحد عكا مع القدس فينتفض البحر كما الدم، القدس لا تشيخ، القدس تتصدى ببطولة للهجمات والاعتداءات الإسرائيلية على الأماكن المقدسة، مسيحيون ومسلمون على مصطبة واحدة، هناك دماء في المسجد، المسيح يبكي، عشرات المصابين والمصابات، المئات من المعتقلين،

خاصــة الأطفال، حكومة الاحتلال تشــنّ حربًا على القــدس وتعطي غطاء لمنظماتها الصهيونية المتطرفة وعصابات المســتوطنين باقتحام المسجد الأقصى المبارك، رصاص وقنابل غاز، قنابل صوت، ضرب وقمع وحصار المصلين، هدم عشرات المنازل، إبعاد المقدســيين عن القدس، شهداء يسقطون في العيســوية والعيزرية وسلوان، إعدامات ميدانية علنية، دماء على وجه القدس، دماء في صلواتها وترانيمها القدسية، دماء تلطخ وجه القانون الدولي وقرارات الشرعية الدولية، القدس تســمو فوق حدودها، تكسر الصمت والتخاذل، فإن سيطروا على جسدها بالمستوطنات والتهويد والقمع والطرد، فلن يسيطروا على روحها القدسية.

الأســيرة الأولى فاطمة برناوي تحفر على جدران الزنازين اسم القدس، تغني للقدس مع عائشــة عودة ورســمية عودة ومع روحية بكري وربيحة ذيــاب وفاطمة حلبي، وزكية شموط وابتسام عميرة ولمياء معروق وروضة بصير ومعزوزة شحادة وسميحة خليل وخديجة أبو عرقوب وفاطمة الكردي ورحاب العيساوي وفيولا ساعاتي وإيمان أبو خاطر، ومع المئات من الأســيرات الأوائل، يوقدن جمــرة الثورة خلف القضبان، القدس ترفــض الحشر والاختناق، القدس تخرج من الظلمات إلى النور، هي بيت الله، القدس تتمرد على السجانين في المسكوبية، فكان أحمد مناصرة ومحمد أبو خضير وعزيز عويسات وأماني الحشــيم وبيان فرعون وعالية عباسي وشفا شلودي، ما هذه القدس التي تحمل روحها وسيادتها وتاجها ومكانتها أينما حلّت وأينما كانت؟ ما هذه القدس التي لازال اليسوع الناصري يحمل آلام الناس، وفي القدس فجر قيامتهم، ومنها عرج الرسول الكريم إلى السماء؟

الأســيرة الأولى فاطمة برناوي تهتف بعد ثمانين عامًا: القدس أو الموت، هي انتفاضة العاصمة ضد البربرية والفاشية الإسرائيلية، الذين قتلوا السلام الإنساني والعالمي على بوابات القدس، القدس ليست مدينة عادية ككل المدن، هي مدينة الله، مدينة القيامة،

محور العالم الروحي، وإذا ما تزعزعت صخرة في القدس تزعزعت كل مدن العالم.

الأســيرة الأولى فاطمة برناوي تصرخ: القدس أو الموت، فلتحذر كل العواصم، إذا ما غضبت القدس فلن تبتسم أي عاصمة أخرى.

الأسيرة الأولى فاطمة برناوي نسمعها داخل سجن الرملة للنساء تغني أشعار الراحل سميح القاسم في ذكرى رحيله:

واسمك القدس في كل حال وحين

واسمك القدس في السلم والحرب

والقدس في العسر واليسر والقدس في الخير

والقدس في البرد والحر

في وشم أبنائك الراحلين

في خلايا الجنين.

الأسير المقدسي رجائي الحداد

كيف عبرت إلى الروح السابعة؟

بعد عشرين عامًا عاصفات قاســيات، أُفرج عن الأســير المقدسي رجائي الحداد من سجون الاحتلال الإسرائيلي، دهشــة الحرية أصابت الجميع، بمن في ذلك السجانون في سجن النقب الذين تســابقوا لالتقاط الصور معه قبل الإفراج، لم يتوقعوا أن يبقى أســيرًا حيًّا بعد هذا الزمن الطويل، كائن حي يتحرر مــن القيود وقيظ النقب ويحرر السجانين من الانتظار الطويل الطويل الذي فرضه عليهم أطول احتلال.

عندما قابلته بعد الإفراج، لم اصدق أن هذا الأسير قضى كل هذه المدة في السجون، لا يظهر عليه أنه تقلب على جمر الحرمان والقمع والبطش كل هذه السنين، شاب مبتسم ضحوك شامخ متكبر متفتح يعرف تفاصيلنا وملامحنا وهمساتنا، ويعرف أكثر معالم الطريق، يذكر أسماءنا وأعمارنا، يعرف أسماء الحارات والأزقة والطيور والأشجار وكأنه لم يُضيّعْ شيئًا من المكان ولم يفقد شيئًا من الذاكرة المتهيجة.

الأسير المقدسي رجائي الحداد منعوه أن يدخل القدس لمدة أسبوع، هناك خطر على سيادة دولة إسرائيل المحتلة في القدس، هناك خطر أن تستيقظ القدس بليلها ونهارها، بشهدائها وجرحاها، بكنائسها ومساجدها وينتفض التاريخ والأرواح والعودة الظافرة، هناك خطر أن تستيقظ الحواس والأنفاس ورائحة الشمس والزيتون وتندلع في شارع صلاح الدين مظاهرة.

لقد وضعت سلطات الاحتلال شروطًا على الأسير رجائي الحداد: ممنوع أن يعود فورًا إلى القدس ليقيم الاحتفال ويستقبله الناس، ممنوع أن يرفع علمًا أو راية أو صورة، أو أن يكتب شعارًا أو يمشي في مسيرة أو يحمله أحد على كتفيه مسرورًا، ممنوع الأغاني والدبكة وتقديم القهوة والحلويات، ممنوع أن يستقبله المقدسيون ليتفقدوا ابنهم العائد النابض كقلب القدس، وإذا ما أخلّ بهذه الممنوعات هدّدوه بالاعتقال وإعادته إلى السجن مرة ثانية.

الأسير المحرر رجائي الحداد خطر على قرار ترامب وعلى مخططات إسرائيل بتهويد القدس وعزلها وطرد سكانها وإسكات آذانها وإغلاق كنائسها، لكنه دخل القدس، ذاب فيها دفعة واحدة، استقبلته الشوارع والشرفات والباعة ورائحة الخبز الطازج ورائحة الكعك بالسمسم والمخللات ورائحة الفواكه والتوابل والملح والحناء والبخور والعسل في أزقتها العتيقة.

عاد رجائي حداد إلى القدس، هنا كان وهنا بدأ، هنا فتحت الأبواب الثمانية، دمه الطازج في الغرفة هو دمه الذي سال طويلًا على «البرش»، علا الأذان وقرعت الأجراس وانطلقت مسيرة، يد فيصل الحسيني تتشابك مع يد المطران كبوتشي، اشتباكات في الطور وسلوان والعيسوية، المرابطون والمرابطات في المسجد لم ترهبهم عصا الشرطة وقنابل الغاز والبوابات الإلكترونية.

رجائي حداد في القدس، تستقبله الشهيدة الطفلة هديل عواد التي أعدموها في جريمة بشعة، تعطيه وردة وكأس ماء وكوفية، يسمع الأسرى يدقون على الأبواب في سجن المسكوبية، تستقبله عائلات الأسرى المقدسيين: زوجة أيمن الشرباتي، زوجة علاء البازيان، أهل الأسير سمير أبو نعمة، والد الأسير الطفل أحمد مناصرة، أم الأسير شادي فراح، عائلة الشهيد محمد أبو خضير، عائلة الأسيرة الجريحة إسراء جعابيص، عائلة الأسيرة الجريحة مرح باكير، وفي غزة يستقبله الشهيد المبتور القدمين واقفًا إبراهيم أبو ثريا، ويتدفق الناس من كل الحارات، يحتضنه الشهيد والأسير والشهيدة، أجنحة في القدس تحلّق في النفوس الطليقة.

الأسير المقدسي رجائي الحداد: كيف عبرت إلى الروح السابعة؟ مررت على أكثر من 700 حاجز عسكري من معبر قلنديا حتى معبر الوالجة، لم تمنعك من دخول القدس تلك المستوطنات والجرافات والإجراءات العنصرية الإسرائيلية والعقوبات الجماعية، قرأت الفاتحة على قبر عمر القاسم ونزلت بطن الهوى وأيقظت نبعًا في الصخر، وأطلقت سلامًا على مخيم شعفاط وألف تحية.

الأسير المقدسي رجائي الحداد: كيف عبرت إلى الروح السابعة؟ القدس تتحرك فيك، صوتك تحفظه تلال ووديان وكهوف القدس، تزفك في نهارها المقدس، ترفعك عاليًا عاليًا يدٌ سماوية.

الأسير المقدسي الكفيف علاء البازيان...
عينان تضيئان شجرة الميلاد والقدس والسماء

المطر والحب والصلاة والشـــتاء تجتمع الآن في ساحة مهد المسيح عليه السلام في بيت لحم، الأراضي الفلسطينية المقدسة رغم مرور عام جاف وقاسٍ على الشعب الفلسطيني تحتفل بأعياد الميلاد المجيدة، والكل يحمل شمعة وحجرًا ودعاء ورجاء.

إني رأيت الأسير المقدسي الكفيف علاء البازيان في الساحة يقرع جرس الكنيسة، يلقي أغلاله الثقيلة ويفتح باب كل ســـجن ومعســـكر بالحقيقة، معتمدًا على يديه ورؤياه، وعلى حمامتين ترفرفان فوق كتفيه لتكون الأرض كلها عيدًا وغناءً.

إني رأيت الأســـير علاء البازيان قادمًا من مدينة القدس، ليس معه سوى صدى صوته النبوي وجناحين للســـلام، يوزع الهدايا على الأطفال ويتفقـــد أركان المدينة، يتجاوز الجـــدران والحواجز والشـــوارع الالتفافية والبوابات الإســـمنتية، يدق على الأبواب الموصدة، يخرج النور من بين عينيه وهو يمســـك بيـــدي طفلته الصغيرة انتصار، يزور عائلات الأسرى ويقرأ الفاتحة أمام صرح الشهداء في مخيم الدهيشة، يرى أبعد مما نراه، يرى شـــعبًا يقاوم بالحلم ويخلع بصموده اليأس والمســـامير والسياج، ويرى في صلاة منتصف ليلة الميلاد أرواحًا وسحبًا والأرض تعانق السماء.

بعد أكثر من 27 عامًا، يعود الأسير علاء البازيان إلى فلسطين، لم يره السجانون وجهاز الأمن الإسرائيلي، لم ترصده الطائرات والصواريـــخ وأجهزة الإنذار، كان هو المبصر ودولة الاحتلال هي العمياء، كان طريقه واضحًا، وطريقهم كلها معســـكرات وألغام وخوفٌ وتطرف واســـتيطان، ترك جســـده المطرز بالشـــظايا في مؤبده وعادت روحه طليقة حرة بعد غياب، القدس نادت عليه ومدت له ذراعيها، فتحت له بواباتها السبع والآيات والتاريخ وغمرته ببشارة الأنبياء.

هنـــا أرضي ومعبدي ومهـــدي وأمي وطفولتي وأقوالي الأولى، يقـــول علاء، هنا حبة قمحـــي وملائكتـــي فاتركوا يا بَني إسرائيـــل أمي وسريري وبيتي وفكّـــوا عني قيود الســـجن والمقبرة، هنا أبنائي وبناتي القابعون في الزنازين يخيطون لي مهدًا وليس كفنًا، يحتفلون بعودتي لأبصر مـــا لا تبصرون، ولأعبد ما لا تعبـــدون، الحب رهن بصيرتي والحق والثورة والمغفرة.

أنا الشـــاهد المقدسي على الجريمة الإسرائيلية المستمرة بحق شعبي الفلسطيني، عشت كل المراحل والمجـــازر والمذابح خلف القضبان، ودّعت أصدقـــاءً قُتلوا قهرًا ومرضًا وتعذيبًـــا ولم تجف دماؤهم عن الجدران، أنا رهين ألـــف محبس وألف لائحة اتهام، أنا الشاهد على من سرق عينيّ ولكني لازلت أراه، أنا الشاهد اليومي على عمليات القمع والبطش التي تستهدف تحطيم الإنسان، أنا الذي احترقت كثيرًا لكن القدس أنقذتني والنبوءة والصلاة وأغاني الرعاة.

أنا الأسير الكفيف علاء البازيان، أنا الســـماوي الفلسطيني الطريد، أنبعثُ من الرماد ضوءًا، أحمل تعاليم المسيح وذخيرة حية من بطولات آلاف الأسرى والأسيرات خلف القضبان، أتقاسم الوجع مع زملائي المرضى ومع الذين يقضون أكثر من ربع قرن من أعمارهم في السجون بانتظار قرص شمس وحبة دواء، نرفع الموت المؤقت قليلًا، نرمم أجسادنا كي لا تصدأ أحلامنا، نبقى مستيقظين نشعل النار حتى يحترق السجان.

في القدس ولدت حيًّا، ولدت مبصرًا وللقدس أعود، القدس عيناي، أمشي في ساحاتها وشـــوارع البلدة القديمة، أشـــم رائحتها وبخورها وخبزها ودمها الطازج، أمرّ على سلوان والعيسوية والطور والمكبر وشـــعفاط والعيزرية، أصعد الجبل وأغتسل بزيت الصعتر والزيتـــون، أتبع الينبوع وصوت الأذان والأجـــراس وخطا الأجداد، عيناي تدلني على المكان، أزور بيوت الأسرى والشـــهداء: سمير أبو نعمة وإسراء جعابيص

وأحمد مناصرة ومحمد أبو خضـــير، أزور صومعة الأب المناضل المطران كبوتشي، أقرأ الفاتحة على قبور شـــهداء هبة القدس، أتصدى مع شعبي للمستوطنين المجرمين الذين يقتحمون باحات الأقصى، وأهتف مع النســـاء المقدســـيات المرابطات، أطلق طائرة ورقية مشتعلة من فوق الســـياج الفاصل في غزة، أوجّه تحية للبحر المتوسط وللكرمل والجولان وحيفا ويافا والناصرة.

عام جديد، وها أنا أضيء شـــجرة ميلاد حريتي، فما زلت حيًّـــا، أنتظر من يدلني على بيتي ويمســـك بيدي، أنتظر من يضع حدًّا لوجعي ويقرع معي أجراس الحرية، أنتظر من يخرجني من هذه الظلمة، أنتظر مســـيحًا يحمل صليبه ويتحدى الآلام والمجنزرة، مسيحًا يفك القيود عن يديّ وعينيّ، واقفًا لا يركع ولا يخضع للابتزاز والمساومة.

أنا الأســـير المقدسي الكفيف علاء بازيان، أرى وطني حرًّا ولا أرى إسرائيل ســـوى معسكرات تعشق الموت والحرب وتكره الحياة، حليب القدس في روحي، يشع الزيت في دمـــي، وليس للمحتلين في بلدي غير ما تركوه من قتل وحرق وخطف وأســـاطير كافرة، الإسرائيليون ينشـــدون للحرب الآن وللحرب القادمة، وأنا في القدس أصلي: المجد لله في الأعالي وعلى الأرض المحبة والحرية والمسرة والسلام.